المساواة في روسيا

«لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة اذا جهالهم سادوا»

لو اقام الحكماء والعلماء السنين الطوال ينادون ان ابناء آدم غير متساوين همة وسمياً واقداماً وانك ان حاولت ان تساوي بينهم فلا تجني الا الفشل . ولو اقام الباحثون والمؤرخون ورجال السياسة عشرات السنين يأتونك بالدليل بعد الدليل من تواريخ الامم وحوادث الايام على ان محاولة هذه المساواة تنتج الفوضى فالدمار ثم تعود الحال كما كانت مجتهد ومتوكل وشيء وفقير وسيد ومسود — لما اتوا بدليل اقوى على الاقناع مما حدث في بلاد الروس في هذه الايام

دخل لينن تلك البلاد متشبعاً بمبادىء الفلاة من زعماء الاشتراكيين والشيوعيين وساعده الالمان بكل ما أوتوا من قوة لكي يمنع روسيا من معاضدة الحلفاء ويقلبها الى معاداتهم . فافلح وقال ان الجميع من اكبر كبير الى اصغر صغير متساوون في الحقوق والواجبات فيجب ان يتساووا في السعي والكدح وان يقسم جنائم بينهم بالسواء فلا يبقى غني ولا فقير ولا سيد ولا مسود بل يكونون كلهم متساوين مثل ابناء بيت واحد

امتحنت هذه المطالب المتطرفة اكبر امتحان في اوسع البلدان واكثرها سكاناً. امتحنت وامم الارض مشغولة عنها بمشاكلها . امتحنت اربع سنوات متواليات فعن اي شيء انجلت وماذا كانت النتيجة

ذهب الاستاذ مردث اتكنسن الى روسيا موفداً من قبل المحسنين المهتمين بانقاذ اطفال الروس من الموت جوعاً وطاف فيها في يناير وفبراير الماضيين فاقام اسبوعين في موسكو وعشرة ايام في جهات الفولغا لكي يرى فعل المجاعة وما يجب ان يعمل لانقاذ الذين يراد انقاذهم .ذهب على نفقته الخاصة لا يضطر ان يصانع. وكان قد ضرب في بلاد الروس قبيل الحرب وعرف احوالها المعاشية والاجتماعية كما هي . وهاك خلاصة ما قاله في وصف زيارته الاخيرة

على من يحاذر ريقا ان يودع الحضارة بكل معانيها فاني من يوم برحتها الى ان عدت اليها لم استطع ان انام في فراش له ملاءة الا ليلتين ولم استطع ان اغتسل الا

مرة واحدة وقضيت اكثر الليالي الباقية نائماً على الواح من الخشب بلا فراش ولا دثار وفراشي وغطائي الفروة التي عليّ وكثيراً ما كنت اقضي النهار كلهُ من غير طعام

وصلت الى ريغا بقطر مفتخر وغادرتها الى موسكو بقطر صار كقطار الحيوانات كان فيهِ اسرّة للنوم لكن قُرشها تمزقت وبليت وكنا خمسة في ديوان فيهِ اربعة من هذه الاسرة ولا تسل عن قذر المرتفقات وسخافة الطعام الذي كنا نجدهُ في المحطات مع ان المجاعة لم تكن ضاربة اطنابها هناك

المسافة بين ريغا وموسكو يجب ان تقطع في ٣٦ ساعة فقطعناها في ٦٠ ساعة ولما وصلنا الى موسكو ولم اجد احداً آتياً لاستقبالي ركبت مع بعض الجنود في لوري وكدت ادق رقبتي من شدة ارتجاجها وبعد لالتيا والتي أدخلت الى ملجأ من ملاجىء السوفيات السبعة والخمسين المنتشرة في موسكو وكانت في العهد السابق قصوراً باذخة او فنادق فاخرة . مخدمي في هذا الملجإ غرفة كبيرة من انفر الغرف امامها درج من الرخام ولكن لم يترك السوفيات فيها غير ما لم يستطيعوا حملهُ من اثاثها لثقلهِ وكان سريري فيها الواحاً من الخشب فرأيت للحال انني ساقاسي ليلاً يبرد الهواء فيهِ الى الدرجة ٢٠ تحت درجة الجليد . وكان عليّ ان اهيىء طعامي بعد ان اشتري موادهُ بنفسي من السوق . الاَّ ان بعثة الصليب الاحمر الالمانية سمحت لي ان اتناول الغداء عندها كل يوم لكنني لم اجد ذلك ميسوراً لي في الغالب لاضطراري ان اكون بعيداً عنها . وكان هناك قصر ملكي لملك السكر الروسي فاخذهُ السوفيات وجعلوهُ مضيفةً وكان اثاثهُ الفاخر لم يزل فيهِ . هناك ينزل رؤساؤهم ويضاف وكلاء الدول فدعاني السوفيات للعشاء فيهِ لان رجالهم يعاملون بمزيد التجلة كل من يأتيهم من قبل لجان الاعانة الاميركية او الانكليزية ولاسيما المتصلين منهم بالدكتور نانسن لانهُ مدح حكومة السوفيات على ما دبرتهُ لتخفيف وطأة المجاعة ولانهم كانوا واثقين اننا لا نرمي الى غرض سياسي . وقد قال لي كثيرون منهم ان بعثة الدكتور نانسن هي البعثة الوحيدة التي لقيت الشكر من روسيا كلها . فكنت اجيبهم انها البعثة الوحيدة التي لم تطعم احداً من الروس لا رجلاً ولا امرأةً ولا ولداً . ولعلي اول من جاهر بذلك ويسرّني ان اجاهر بهِ لا حطاً من كرامة الدكتور نانسن لانني اعتقد ان غرضهُ من اشرف الاغراض ولكن ادارة اللجنة التي توزع الاعانات في روسيا ليست في يدهِ وغاية مرادي

ان يعرف الجمهور من هم الذين يوزعون الاعانات وكيف يوزعونها

ولقد اخطأ الدكتور نانسن بقوله ان سبب المجاعة من جنود البيض فان الجنرال دنكن لم يمر في البلاد المصابة بالمجاعة ولا فرنجل مرّ بها ولا كولتشك . اما سبب المجاعة الحقيقي فهو مصادرة السوفيات للحبوب حتى يطعموا بها الجيش . ففي سنة ١٩١٨ قبل هذا المصادرة كان الطعام كافياً . وسنة ١٩١٩ بعد المصادرة قلّ ولكن قلته لم تكن بحيث يخشى ضررها غير ان الفلاحين لما رأوا ان غلاتهم تصادر ابوا ان يزرعوا الا كفافهم . ثم اشتدت المصادرة سنة ١٩٢٠ فلم يزرع الفلاحون تلك السنة الا نصف ما زرعوهُ سنة ١٩١٩ ثم زرعوا سنة ١٩٢١ سبعين في المائة مما زرعوهُ سنة ١٩٢٠ . والفلاحون انفسهم يقولون صريحاً ان مصادرة الحبوب هي سبب المجاعة او هي سببها الاكبر وهم ضحاياها لا جمهور السوفيات الذين في يدهم الامر والنهي ودأبهم المساواة بالاشتراكية

اما حالة الفلاحين فما يعجز القلم عن وصفهِ فالتيفوس والبرد والجوع اهلكت ملايين من زهرتهم ولاسيما من الذين اصلهم المالي فانهم كادوا يفنون . قُتل كثيرون منهم في بداءة الحرب لانهم المال ثم جاء البلشفك فنهبوهم ونهبهم الجنود الحمر فلم يبقوا عندهم شيئاً . ولقد حل الموتان بالناس والبهائم فبعض القرى مات نصف سكانها واكثر من تسعة اعشار بهائمها

اما حكومة السوفيات فباذلة الآن اقصى جهدها في ايصال الاعانة الى الجياع بذاراً للزرع وطعاماً للبالغين القادرين على العمل . لكن هذا الطعام قليل سخيف لا يزيد على الخبز الاسود وشيء من الشوربا السائطة . واكثر الاعانات آت من انكلترا واميركا فالانكليز يطعمون الآن ٣٥٠٠٠٠٠ ولد و ١٠٠٠٠٠٠ بالغ والاميركيون يطعمون بضعة ملايين وقد يبلغ عدد الذين يطعمونهم عشرة ملايين الى ١٣ مليوناً لان حكومة اميركا تبرعت باربعة ملايين من الجنيهات لهذا العمل

نأتي الآن الى الغرض الاصلي الذي ترمي اليهِ البلشفية وهو المساواة بين الناس واشراكهم في المساعي والمنافع . زرت مستشفى من المستشفيات فوجدت ان خادمهُ صار رئيساً لهُ جرياً على قانون المساواة في الحقوق فامر ان يتناوب كل رجالهِ الاعمال كالكنس والغسل [illegible] ولم يستثنِ طبيب المستشفى من ذلك فقام الطبيب بما طُلب منهُ واستدعت الحال ان يعمل عملية جراحية لاحد المرضى فقال

للمدير يجب ان تعملها انت في نوبتك وبعد جدال طويل تنازل الرئيس عن رأيه

وبعد ان ذكر الكاتب امثلة من مظالم البلشفك وتسخيرهم الناس بلا اجرة ولا طعام ذكر ما اشرنا اليه في مقتطف مايو من الهبوط الفاحش في قيمة ورق النقد الروسي حتى صار الجنيه يساوي مليوني روبل بعد كانت قيمة الروبل عشرة غروش او اكثر. واستطرد الى ما شاهده مما آلت اليه حال بعض الذين كانوا في نعمة سابغة وهم يقفون الآن في الشوارع يبيعون ما بقي عندهم من الحلى لكي يشتروا رغيفاً يحفظون به رمقهم. وشرهم حالاً المتعلمون لانهم اكره الناس الى البلشفك ولم يحتفظ البلشفك من آثار الحضارة السابقة الا بعض اهل التمثيل والرقص لتسلية الناس عما هم فيه

الغرض الذي ادعى البلشفك انهم يرمون اليه هو ابطال الاعمال الفردية وابدالها باعمال عمومية او شيوعية فاستولوا على اموال الاغنياء اصحاب المعامل والمصانع وحولوها الى منشآت عمومية شأنُ اصحابها الاصليين فيها شأن احد عمالها لكي يساووا بين الجميع فكانت النتيجة انهم خربوا ولم يبنوا. ثم قرروا منذ نصف سنة السماح لارباب الصناعة والتجارة بالعودة الى اعمالهم الفردية. اي قلبوا فلسفة ماركس رأساً على عقب فان فلسفتهُ تدّعي ان الفردية مضرّة لانها غير طبيعية ولا بدّ من ان تنقض وتقوم الاشتراكية النافعة على انقاضها لكن البلشفك امتحنوا هذه الفلسفة في روسيا فنقضوا الفردية وحاولوا بناء الاشتراكية على انقاضها فاذا بها اسوأ من الفردية بما لا يقدر. فعادوا الآن الى بناء الفردية وابتدأ ذلك في موسكو. ولو وُجدت المواد الاولية ورؤوس الاموال لعادت المعامل الفردية الى حركتها السابقة

ولا شبهة الآن في ان البلشفك فشلوا ولم يصلوا الى الغرض الذي كانوا يرمون اليه وهو جعل الارض والمعامل ملكاً مشاعاً واضطروا ان يعيدوا التملك الفردي ويسنوا قوانين جديدة للتجارة مثل قوانين البلدان التي تعتمد على رأس المال. وجعلوا يتوسلون الى اغنياء سائر البلدان ليأتوهم ويستثمروا اموالهم في روسيا. وسيكون للمال والماليين اليد الطولى في مستقبل تلك البلاد ولا بدّ من ان تنقوض دعائم هذه الثورة ولو بقيت آثارها في النفوس دامية. وعسى ان يكون في ذلك عظة للذين ينادون بالاشتراكية في البلاد الشرقية لان التدمير لا يعقبهُ التعمير